



مقالة / الجزء الثاني

شبّهات وإيضاحات

حول أصول الفقه عند الشيعة الإمامية

«آية الله الشيخ» د. جعفر السبحاني، إيران

«هل سنة وراء سنة النبي؟»

السنة هي المصدر الثاني للعقيدة والشرعية، سواء أكانت منقولة باللفظ والمعنى، أو كانت منقولة بالمعنى فقط، إذا كان الناقل ضابطا في النقل. وقد خص الله بها المسلمين دون سائر الأمم حيث إنهم اهتموا بنقل ما أثر عن النبي من قول وفعل وتقرير، وبذلك صارت السنة من مصادر التشريع الإسلامي.

وقد أكد أئمة أهل البيت عليهم السلام على أن السنة الشريفة هي المصدر الرئيسي بعد الكتاب، وأن جميع ما يحتاج الناس إليه قد بينه سبحانه في الذكر الحكيم أو ورد في سنة نبيه.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئا تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه وبينه لرسوله، وجعل لكل شيء حدا، وجعل عليه دليلا يدل عليه، وجعل على من تعدى ذلك الحد حدا.»

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة.»

وروى سماعة عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام قال: «قلت له: أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه، أو تقولون فيه؟ قال: بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه.»

روى أسامة قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده رجل من المغيرة) فسأله عن شيء من السنن فقال: «ما من شيء يحتاج إليه ولد آدم إلا وقد خرجت فيه سنة من الله ومن رسوله، ولولا ذلك ما احتج علينا بما احتج؟» فقال المغيرة: «بم احتج؟» فقال أبو عبد الله عليه السلام: قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)، فلو لم يكمل سنته وفرائضه وما يحتاج إليه الناس، ما احتج به.»

روى أبو حمزة عن أبي جعفر قال: قال رسول الله في خطبته في حجة الوداع: «أيها الناس اتقوا الله، ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه وأمرتكم به» إلى غير ذلك من النصوص المتضاربة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من التأكيد على السنة والركون إليها.

«أئمة أهل البيت عليهم السلام حفظة سنن الرسول

كان النبي الأكرم يقوم بأمور ومهام لها صلة بالجوانب المعنوية بالإضافة إلى إدارة دفة الحكم، وهي:

١ - تبيين الأحكام الشرعية والإجابة عن الحوادث المستجدة التي لم يبين حكمها في الكتاب ولا في السنة الصادرة إلى يومها.

٢ - تفسير القرآن الكريم وتبيين مجملاته وتقييد مطلقاته وتخصيص عموماته.

٣ - الرد على الشبهات والتشكيكات التي يطلقها أعداء الإسلام من اليهود والنصارى بعد الهجرة.

ومن المعلوم أن من يقوم بهذه المسؤوليات سوف يورث فقده فراغا هائلا في نفس هذه المجالات، ومن الخطأ أن تنهم النبي -والعياد بالله- أنه قد ارتحل من دون أن يفكر في ملء تلك الثغرات المعنوية الحاصلة برحيله..

فإذا رجعنا إلى أحاديث النبي تنقف على أنه قد سد هذه الثغرات باستخلاف من جعلهم قراء الكتاب وأعداله، وأناط هداية الأمة بالتمسك بهما، ونذكر نماذج من كلماته في هذا المجال:

١ - روى ابن الأثير الجزري في «جامع الأصول» عن جابر بن عبد الله قال: «رأيت رسول الله في حجة الوداع يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي.»

٢ - وأخرج مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال: «قام رسول الله يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، وحمد الله وأثنى عليه وعوظ وذكر، ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه.. ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي.»

٣ - أخرج الترمذي في صحيحه عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «رأيت رسول الله في حجة يوم عرفة على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي.»

٤ - أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود إلى السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

وهذا الحديث المعروف بحديث الثقلين رواه عن النبي أكثر من ثلاثين صحابيا، ودونه ما يربو على ثلاثمائة عالم في كتبهم في مختلف العلوم والفنون، وفي جميع الأعصار والقرون، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين، وقد عين النبي ببركة هذا الحديث من يسد هذه الثغرات ويكون المرجع العلمي بعد رحيله وليس هو إلا أهل بيته.

وبهذا يتبين أن العترة عليهم السلام عيبة علم الرسول، وخزنة سنته، وحفظة كلمه، تعلموها بعناية من الله تبارك وتعالى كما تعلم صاحب موسى بفضل من الله دون أن يدرس عند أحد، ولذلك تمنى موسى عليه السلام أن يعلمه مما علم، قال سبحانه حاكيا عن لسان نبيه موسى عليه السلام (قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا).

وعلى ضوء ذلك فليس لأئمة أهل البيت عليهم السلام سنة ولا تشريع، وما أثر عنهم من قول وفعل وتقرير فإنما يعتبر لكونهم حفظة سنن النبي، فلا يصدرن ولا يحكمون إلا بسنته. فلو قيل: إن قول الإمام عليه السلام أو فعله أو تقريره سنة إنما يراد به أنهم تراجم سنة النبي وأقواله وأفعاله.

فما قاله العلامة الشيخ المظفر رحمته الله من أن المعصوم من آل البيت عليهم السلام يجري قوله مجرى قول النبي من كونه حجة على العباد إنما يريد ذلك. وما أحسن قوله «يجري مجرى قول النبي»، فلو كان أئمة أهل البيت عليهم السلام أصحاب سنن في عرض سنة النبي فلماذا قال: «ويجري قولهم مجرى قول النبي»؟!

هذه عقيدة الإمامية من أولهم إلى آخرهم، فالتشريع لله سبحانه فقط، والنبي الأكرم هو المبلغ عن الله سبحانه في ما شرعه، وأئمة أهل بيته خلفاء رسول الله وحفظة سنته وتراجم كلمه، والمبلغون عنه السنن حتى يجسدوا إكمال الدين في مجالي العقيدة والشرعية. وحين قال سبحانه: (اليوم أكملت لكم دينكم) فإنما هو لأجل نصب علي عليه السلام أول أئمة أهل البيت عليهم السلام للخلافة لكي يقوم بنفس المسؤوليات التي كان النبي قائما بها طيلة أيام رسالته، ويملا الثغرات التي أعقبتها رحلته، غير أنه نبي يوحي إليه وهذا وصي حافظ لسنته.

سنة الصحابة في مقابل سنة النبي:

لقد تبين لنا أن الأستاذ قد عجب من وجود سنة لأهل البيت عليهم السلام، وقد فسرنا معنى ذلك عند الإمامية، وقلنا بأنه ليس للأئمة سوى سنة النبي، ولكن ألقت نظره إلى أن أهل السنة قد قالوا بوجود سنن أخرى بعد سنة النبي، واليك ما يشير إلى ذلك:

١- الحديث المعروف عندهم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ.»

يقول ابن قيم الجوزية في تفسير الحديث: «فقد قرن سنة خلفائه بسنته وأمر باتباعها كما أمر باتباع سنته، وهذا يتناول ما أفتوا به وسنوه للأئمة وإن لم يتقدم للنبي فيه شيء، وإلا كان ذلك سنة». فالرواية تدل على أن للصحابة سنة كسنة النبي، فعندهم سنة أبي بكر وسنة عمر وسنة عثمان وسنة علي.

٢ - روى السيوطي أن حجاب بن خليفة قال: «شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو خليفة، فقال في خطبته: على أن ما سن رسول الله وصاحبه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه، وما سن سواهما فإنا نرجئه.»

أبعد هذه النصوص يصح للأستاذ أن يستغرب من وجود سنة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وقراء الكتاب، وثاني الثقلين..

ولولا المخافة من تكدير مياه الصفاء لبسطنا القول في ذلك.

«طرق علم الأئمة بالسنة

قد أشرنا إلى أنه ليس لأئمة أهل البيت عليهم السلام سنة خاصة، بل هم حفظة سنن النبي، ولسائل أن يسأل: ما هي طرقهم إلى سنن النبي وأكثرهم لم يعاصروه ولم يسمعو عنه مباشرة، ومن المعلوم أن النبي قد عاصره الإمام علي والإمامان الحسن والحسين عليهم السلام فقط؟ والإجابة عن هذا السؤال واضحة لمن عرف أحاديث الشيعة وأنس بجوامعهم، فإن لهم عليهم السلام طرقا إلى سنن النبي تأتي ببعضها:

الأول: السماع عن رسول الله:

إن الأئمة عليهم السلام يروون أحاديث حجاج بيت الله الحرام. من جانبه قال رئيس قسم الشؤون الدينية كرار الخفاجي في تصريح أنه: «برعاية العتبة العلوية المقدسة وبحضور أساتذة وفضلاء الحوزة العلمية والإخوة المرشدين والمبلغين الذين هم بخدمة حجاج بيت

الثاني: كتاب علي عليه السلام.

كان لعلي عليه السلام كتاب خاص بإملاء رسول الله، وقد حفظته العترة الطاهرة عليهم السلام، وصدرت عنه في مواضع كثيرة، ونقلت نصوصه في موضوعات مختلفة، وقد بث الحر العاملي في موسوعته الحديثية أحاديث ذلك الكتاب حسب الكتب الفقهية من الطهارة إلى الديات، ومن أراد فليرجع إلى تلك الموسوعة.

وإليك شذرات من أقوال الأئمة بشأن هذا الكتاب الذي كانوا يتوارثونه وينقلون عنه ويستدلون به:

قال الإمام الحسن المجتبي عليه السلام: «إن العلم فينا، ونحن أهلّه، وهو عندنا مجموع كله بحذافيره، ومنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة، حتى أُرش الخدش، إلا وهو عندنا مكتوب، بإملاء رسول الله وخط علي بيده.» وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام لأحد أصحابه -أعني خمران بن أعين- وهو يشير إلى بيت كبير: «يا حمران، إن في هذا البيت صحيفة، طولها سبعون ذراعا، بخط علي عليه السلام وإملاء رسول الله، ولو ولينا الناس لحكمنا بما أنزل الله، لم نفع ما في هذه الصحيفة.»

وقال أيضا لبعض أصحابه: «يا جابر، إنا لو كنا نحدثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكننا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله.»

وقال الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن الجامعة: «فيها كل ما يحتاج إليه الناس، وليس من قضية إلا فيها حتى أرش الخدش.»

وقال الإمام الصادق عليه السلام في تعريف كتاب علي: «فهو كتاب كوله سبعون ذراعا إملاء رسول الله من فلق فيه، وخط علي بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة، حتى فيه أرش الخدش، والجلدة، ونصف الجلدة.»

ويقول سلمان بن خالد: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "إن عندنا صحيفة طولها سبعون ذراعا، إملاء من رسول الله، وخط علي عليه السلام بيده، ما من حلال ولا حرام إلا وهو فيها، حتى أرش الخدش.»

وقد كان علي عليه السلام أعلم الناس بسنة الرسول، وكيف لا يكون كذلك وهو القائل: «كنت إذا سألت رسول الله أعطيني، وإذا سكنت ابتدأني.»

الثالث: أنهم محدثون.

لأجل إيقاف القارئ على المحدث في الإسلام ومفهومه نذكر شيئا في توضيحه.

المحدث من تكلمه الملائكة بلا نبوة ورؤية صورة، أو يلهم له ويلقي في روعه شيء من العلم على وجه الإلهام والمكاشفة من المبدأ الأعلى، أو ينكت له في قلبه من حقائق تخفى على غيره.

فالمحدث بهذا المعنى مما أصفقت الأمة الإسلامية عليه، بيد أن الخلاف في مصاديقه، فالسنة ترى أن عمر بن الخطاب من المحدثين، والشيعة ترى عليا وأولاده الأئمة منهم.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال النبي: «لقد كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمي منهم عمر.»

وقد أفاض شراح صحيح البخاري في الكلام حول المحدث.

وللمحدثين من أهل السنة كلمات حول المحدث تأتي بملخصها:

يقول القسطلاني حول الحديث: يجري على ألسنتهم الصواب من غير نبوة.

وأخرج مسلم في صحيحه باب فضائل عمر عن عائشة عن النبي: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم.»

وقال النووي في شرح مسلم: «اختلف تفسير العلماء في المراد بـ"محدثون"، فقال ابن وهب: ملهمون، وقيل: يصيبون إذا ظنوا كأنهم خُذِّثُوا بشيء فظنوه، وقيل: تكلمهم الملائكة، وجاء في رواية مُكَلِّمون.» وقال الحافظ محب الدين الطبرسي في "الرياض": «ومعنى "محدثون" -والله أعلم- أن يلهموا الصواب، ويجوز أن يحمل على ظاهره، وتحديثهم الملائكة لا لوعي، وإنما بما يطلق عليه اسم حديث، وتلك فضيلة عظيمة.»

وحصيلة الكلام أنه لا وازع من أن يخص سبحانه بعض عباده بعلوم خاصة يرجع نفعها إلى العامة من دون أن يكونوا أنبياء أو معدودين من الرسل، والله سبحانه يصف مصاحب موسى بقوله (فوجدنا عبدا من عبادنا أتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)، ولم يكن

المصاحب نبيا، بل كان وليا من أولياء الله سبحانه وتعالى، بلغ من العلم والمعرفة مكانة دعت موسى وهو نبي مبعوث بشريعة إلى القول (هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا).

ويصف سبحانه وتعالى جليس سليمان -أصف بن برخيا- بقوله (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي).

وهذا الجليس لم يكن نبيا، ولكن عنده علم من الكتاب، وهو لم يحصله من الطرق العادية التي يتدرج عليها الصبيان والشبان في المدارس والجامعات، بل كان علما إلهيا أفيض عليه لصفاء قلبه وروحه، ولأجل ذلك ينسب علمه إلى فضل ربه ويقول: (هذا من فضل ربي).

والإمام علي والأئمة من بعده الذين أنيطت بهم الهداية في حديث الثقلين ليسوا بأقل من صاحب موسى عليه السلام أو جليس سليمان، فأى وازع من أن ينقفوا على سنن النبي عن طريق الإشرافات الإلهية.

الرابع: الاستنباط من الكتاب والسنة.

هذا هو الطريق الرابع، فقد كانوا عليهم السلام يستدلون على الأحكام الإلهية بالكتاب والسنة بوعي متميز يبهز العقول ويورث الحيرة، ولولا خشية الإطالة في المقام لنقلنا نماذج كثيرة من ذلك، ونكتفي هنا بنموذج واحد، وهو: قدم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم: فقال يحيى بن أكنم: الإيمان يحمو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكل إلى الإمام علي الهادي عليه السلام يسأله، فلما قرأ الكتاب كتب: يضرب حتى يموت، فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه ليسأله عن العلة، فقال عليه السلام: (بسم الله الرحمن الرحيم فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)، فأمر به المتوكل فضرب حتى مات.

إن الإمام المهدي بيانه هذا شق طريقا خاصا لاستنباط الأحكام من الذكر الحكيم، طريقا لم يكن يحلم به فقهاء عصره، وكانوا يزعمون أن مصادر الأحكام الشرعية هي الآيات الواضحة في مجال الفقه التي لا تتجاوز ثلاثمائة آية، وبذلك أبان للقرآن وجهها خاصا لدلالته، لا يلتفت إليه إلا من نزل القرآن في بيته، وليس هذا الحديث غريبا في موره، بل له نظائر في كلمات الإمام وغيره من آبائه وأبنائه عليهم السلام.

هذه الإمامة عابرة في بيان طرق أهل البيت عليهم السلام إلى النبي.

فما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: حول علمهم بالسنة فإنما هو ناظر إلى ما سبق ذكره.

سئل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه، أو تقولون فيه؟ فقال: «لا، بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه.»

فالإمام يريد بالسنة ما ذكرنا (مصادرها وطرقها) لا خصوص السنة الموجودة في أفواه الناس وعلى ألسنتهم، وإن كان ربما يلتقي علمهم بالسنن بما رواه الناس عن النبي في بعض المواضع.

هذه الرواية العابرة توقفنا على مدى ما نقله الأئمة عليهم السلام من سنن النبي. كيف لا يكون عند علي كتاب يجمع فيه سنن النبي وهؤلاء هم أبناء علي عليه السلام ينقلون عنه ويعتمدون عليه؟!

والعجب ما ورد في رواية البخاري من أن الصحيفة التي كان يحتفظ بها علي لم تشتمل إلا على جمل محدودة، فلو لم يكن عند علي وأبنائه المعصومين إلا ما جاء في هذه الرواية، فمن أين هذه العلوم الموروثة عنه وعن أبنائه الصادقين التي بهرت بها العقول؟!

كيف لا يكون عند علي عليه السلام سوى هذه الصحيفة أو ما في ألسن الناس مع أن المسلم عند الفريقين أن عليا كانت عنده علوم وأسرار لم تكن عند غيره، وكان الصحابة يرجعون إليها في المشاكل والمسائل العويصة؟، فهذا عمر بن الخطاب وسائر الخلفاء كانوا يرجعون إليه ويسألونه، كيف لا وهو باب مدينة علم النبي.

وقد قام زميلنا الجليل المغفور له الشيخ علي الأحمدى بجمع ما ورد في كتاب علي عليه السلام مما هو ميثوث في الجوامع الحديثية، ورتبه على ٢٦ بابا، وما جمعه إنما هو غيض من فيض وقليل من كثير مما كان في الأصل.

إنتهت وتليها الجزء الثالث في العدد المستقبل المصدر: مجلة الواضحة، العدد الثالث

العتبة العلوية المقدسة تستضيف المؤتمر السنوي للمرشدين والمرشدات المرافقين لحجاج بيت الله الحرام

عام يقام المؤتمر في أروقة العتبة العلوية المقدسة مشكورة، و بحضور ما يقرب من٦٥٠ مرشداً ومرشدة، ويقام لتيبان دور المرشدين والمرشدات في تصحيح مناسك الحج، كما يكرس المؤتمر جهوده لبيان أهم النقاط التي سيقوم بها المرشدون في الديار المقدسة لمعالجة الأخطاء الفقهية التي قد يقع بها الحجاج لكي يكون حجهم سليماً ومقبولاً إن شاء الله .

تمهيدي من أجل تهية القوافل الناهية إلى الديار المقدسة وقد أكدنا خلاله على التعاون والتفاني في خدمة ضيوف الرحمن؛ لما للمرشد الديني من دور كبير في التبليغ والإرشاد والوعظ وهذا ما نركز عليه في كل عام .

بدوره أشار المسؤول في دائرة الإرشاد والبحوث بالهيئة الشيخ طالب عزيز جبر، إلى أن المؤتمر يحتضن مرشدي ومرشدات العراق لموسم الحج، وأكثر من

الله الحرام، أقيمت أعمال المؤتمر السنوي لهيئة الحج والعمرة للإخوة المبلغين والمرشدين والمرشدات الذين سيتجهون إلى بيت الله الحرام خدمة للمؤمنين الذين سيؤدون فريضة الحج .

وشكر رئيس هيئة الحج والعمرة الشيخ سامي المسعودي العتبة العلوية المقدسة على استضافة المؤتمر في رحاب أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: إن المؤتمر

السيد رشيد الحسيني قدموا خلالها التوجيهات الأخلاقية والعقائدية المهمة لجموع المرشدين والمرشدات لرعاية قوافل حجاج بيت الله الحرام . من جانبه قال رئيس قسم الشؤون الدينية كرار الخفاجي في تصريح أنه: «برعاية العتبة العلوية المقدسة وبحضور أساتذة وفضلاء الحوزة العلمية والإخوة المرشدين والمبلغين الذين هم بخدمة حجاج بيت

وكالة أنباء الحوزة - افتتح المؤتمر بتلاوة من الذكر الحكيم تلاها قارئ العتبة العلوية المقدسة السيد محمد مصطفى الحسيني.

واستذكر المؤتمرون شهداء فتوى الجهاد الكفائي الأبرار من المرشدين من أساتذة الحوزة العلمية المباركة والذين ضحوا بأرواحهم دفاعاً عن الوطن والمقدسات. ثم كانت الكلمة لرئيس هيئة الحج والعمرة الشيخ سامي المسعودي في تبيان الإجراءات والأمور التنظيمية للمرشدين والمرشدات. بعدها كانت الكلمات للعلماء الأفاضل سماحة الشيخ حسن الجواهري، وسماحة